مجلة دراسات إسلامية رقم ISSN 1112-8011
المجلد : 15 العدد : 02 السنة : 2020 ص 113 – 124

حكمة لقمان بين الفلسفة والقرآن

"دراسة موضوعية مقارنة"

Wisdom of Loqman

Comparative Study between Philosophy & Quran

" A comparative objective study"

بكار محمود الحاج جاسم *

قسم الفلسفة الإسلامية ، جامعة يالوفا، تركيا ، abbakkar92@gmail.com

تاريخ الارسال : 2020/09/09	تاريخ القبول : 2020/12/10	تاريخ النشر : 2020/12/22

ملخص:

لدى المقارنة بين المسائل التي بحثها الفلاسفة والتي أشارها إليها القرآن نلاحظ تقارباً في بعضها واختلافاً في بعضها الآخر، سأذكر مسألة جوهرية في هذا البحث وهي مسألة حكمة لقمان التي أشار إليها القرآن، أقول مسألة جوهرية لأنَّ الفلسفة كلمة يونانية تُرْجِمَتْ إلى العربية بمعنى الحكمة، وكلمة الحكمة باشتقاقاتها ذُكِرَتْ في القرآن كثيراً، سأشير إلى بعض معانيها في المبحث الأول عند التعريف بالفلسفة، ثم ندرس حكمة لقمان دراسة موضوعية في المباحث المتعاقبة.

وتبدو أهمية هذا البحث من خلال رؤية بعض المتفلسفة للقرآن على أنه خطاب وعظي وليس فلسفياً عقلياً، وأنه لا يصلح لكل زمان ومكان كما يزعم المؤمنون، فينبغي أنْ يُقْرأ في المساجد وعلى الموتى فقط! وفي الحقيقة هذه رؤية خاطئة، لأنَّ هناك عبثاً وتحريفاً للمصطلحات العلمية، ومسألة التدقيق في المصطلحات مسألة مهمة تحتاج إلى بحث خاص، سنقتصر هنا على مصطلح الفلسفة لدى أصحابها الأوائل ونقارنه بمصطلح الحكمة، ونبحث المسائل التي جاءت في حكمة لقمان ونقارنها بما ذكره بعض الفلاسفة، حيث تضمنت وصايا لقمان لابنه أهم المسائل الفلسفية!

الكلمات المفتاحية: الفلسفة، الحكمة، لقمان، الألوهية، الأخلاق.

Abstract:

While comparing between the issues which were approached by the philosophy and were signed by Quran,

* المؤلف المرسل

we notes the convergence in some of them and divergence in others, I will mention a fundamental issue in this research, it is the wisdom of Loqman, which Quran signed to, it is a fundamental because the term of philosophy is Creek, and translated to wisdom (Hikmah) in Arabic, that was mentioned in Quran with its derivatives in several times, I will refer to some of them in the first topic in the definition of philosophy, then i will study the wisdom of Loqman as an objective approach in the successive topics.The impotence of research seems through the view of some philosophers that Quran is a preah speach not rational nor philosophical, it is not suitable for every time and place as the believers claimed, and it is just be recited in the mosques and for the dead! It is an incorrect view basically, since there is manipulation of the scientific terms, and the examination of terms is an important issue, which needs to be addressed in other research, therefore my research is restricted to the term of philosophy for the early holders, in comparison with the term of wisdom (Hikmah), and it is examining the issues that stated in Loqman wisdom, in comparison with the philosophers views, whereby the commandments of Loqman has been included the most important philosophical issues.

Keywords: **Philosophy**, **Wisdom**, **Loqman**, **Deity**, **Morality**

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه، أما بعد: فإن مصطلح الفلسفة عند كثير من الناس لا يتفق مع حقيقته لدى أساطين الفلاسفة كأفلاطون وأرسطو من فلاسفة اليونان، والكندي والفارابي وابن سينا من فلاسفة الإسلام، وكذلك الشأن مع مصطلح الفيلسوف، ولا أستطيع أن أتجاوز معنى الفلسفة والفيلسوف عند هؤلاء الفلاسفة الذين نظَّموا وهذَّبوا الفكر الإنساني على شكل قوانين علمية، سواء اتفقنا معهم أو اختلفنا، فتلك القوانين هي إنتاج عقلي قابل للصواب والخطأ. وسنناقش معنى الفلسفة والفيلسوف في المبحث الأول.

ولدى المقارنة بين المسائل التي بحثها الفلاسفة والتي أشارها إليها القرآن نلاحظ تقارباً في بعضها واختلافاً في بعضها الآخر، سأذكر مسألة جوهرية في هذا البحث وهي مسألة حكمة لقمان التي أشار إليها القرآن، أقول مسألة جوهرية لأنَّ الفلسفة كلمة يونانية تُرْجِمَتْ إلى العربية بمعنى الحكمة، وكلمة الحكمة باشتقاقاتها ذُكِرَتْ في القرآن كثيراً، سأشير إلى بعض معانيها في المبحث الأول عند التعريف بالفلسفة، ثم ندرس حكمة لقمان دراسة موضوعية في المباحث المتعاقبة.

وتبدو أهمية هذا البحث من خلال رؤية بعض المتفلسفة للقرآن على أنه خطاب وعظي فقط وليس فلسفياً عقلياً، أي: علمياً! ويرون أنه لا يصلح لكل زمان ومكان، وينبغي أنْ يُقْرأ في المساجد وعلى الموتى فقط! وفي الحقيقة هذه رؤية خاطئة، لأنَّ هناك عبثاً وتحريفاً للمصطلحات العلمية، ومسألة التدقيق في

المصطلحات مسألة مهمة تحتاج إلى بحث خاص، سنقتصر هنا على مصطلح الفلسفة لدى أصحابها الأوائل ونقارنه بمصطلح الحكمة، ونبحث المسائل التي جاءت في حكمة لقمان ونقارنها بما ذكره بعض الفلاسفة، حيث تضمنت وصايا لقمان لابنه أهم المسائل الفلسفية!

ومن هذه الأهمية للموضوع يكون سبب اختيار البحث، فإشكالية البحث هي تصحيح الرؤية الخاطئة عن خطاب القرآن التي علقتْ بفكر بعض الناس، إما عن جهالة، ولا يصح في الميزان العلمي أن يتكلم الجاهل فيما يجهل ونحن في عصر التخصصات العلمية في جميع المجالات، وإما عن عداوة، وليس للعداوة علاج إلا الدفع بالتي هي أحسن، وذلك منهج قرآني في الأقوال والأعمال، يصدر عن صدق ومدارة، وليس عن نفاق ومداهنة!

ولم أقف على دراسة بحثت هذا الموضوع بين الفلسفة والقرآن على النحو الذي سأبحثه هنا. والمنهج الذي يرتكز عليه البحث هو المنهج التحليلي المقارن. وقد جاءت خطة البحث على الشكل الآتي: المقدمة ويُذْكَر فيها أهمية الموضوع وسبب اختياره وإشكالية البحث والدراسات السابقة والمنهج المتبع وخطة البحث. والمبحث الأول يتناول التعريف بالفلسفة ومقارنتها بالحكمة، والمبحث الثاني يتناول مسألة الشكر وصلتها بالحكمة، والمبحث الثالث يتناول مسألة الألوهية، والمبحث الرابع يتناول الدِّين والأخلاق، ثم تكون الخاتمة ويذكر فيها نتائج البحث، ويتبعها فهرس المصادر.

المبحث الأول: التعريف بالفلسفة:

الفلسفة كلمة يونانية تعني عندهم محبة الحكمة، وكلمة "فيلسوف" أصلها مركب من "فيلا" و"سوفا" أي: محب الحكمة[1]. ومعنى الحكمة في اللغة العربية: "معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم"[2]. هذا عن أصل الكلمة واشتقاقها اللغوي، فأما التعريف الاصطلاحي فقد عرَّفها أفلاطون بأنها: "إدراك الحقيقة"[3]. وعرَّفها الكندي للفلسفة بأنها"علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان"[4]. ونُقِل عنه أيضاً أنها: "التشبه بالإله بقدر الطاقة الإنسانية"[5]. وهذا التعريف يشير إلى الغاية من الفلسفة، وهي استكمال النفس الإنسانية فضائلها. ونستنتج من هذه التعريفات أنَّ الفلسفة صناعة عقلية لمعرفة حقائق الأشياء.

فأما معنى الحكمة فقد ذكر الزَّبِيْدي أنَّها تعني: العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه والعمل بمقتضاها، وهذا المعنى موافق للمعنى السابق لمصطلح الفلسفة. وقال: وهذه هي الحكمة الإلهية المراد بقوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)[سورة لقمان: 12]. أي: حجة العقل على وفق أحكام الشريعة. ثم ذكر من معانيها: النبوة والرسالة، وكذلك تُطْلَق على القرآن والتوراة والإنجيل؛ لتضمن كلٌّ منها الحكمة المنطوق بها، وهي أسرار علوم الشريعة والطريقة والمسكوت عنها، وهي علم أسرار الحقيقة الإلهية. وتطلق أيضاً على الفقه في الدين والعمل به، وعلى الفهم والخشية والورع والإصابة والتفكر في أمر الله واتباعه[6]. ومن الآيات الجامعة لمعاني الحكمة قوله تعالى: (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ)[سورة البقرة: 269]. قال الطبري: "يؤتي الله الإصابة في القول والفعل من يشاء من عباده"[7]. وقال الراغب الأصفهاني: "الحكمة معرفة حقائق الأشياء، وحقيقتها إنما هي للهﷻ، وإذا استعمل في غيره، فمبلغ ذلك تقدم طاقة البشر، وهي أعم من النبوة، فكل نبي حكيم، وليس كل حكيم

نبياً"[8]. فالخلاصة من معاني الفلسفة والحكمة أنَّ كلمة الفلسفة تعني الحكمة في بعض معانيها، ذلك أنَّ كلمة الحكمة أوسع في دلالاتها من كلمة الفلسفة، وإذا رجعنا إلى معنى الفلسفة من حيث اشتقاقها عند اليونان فإنها تعني حب الحكمة، وليست هي الحكمة ذاتها، والفيلسوف هو محب الحكمة وليس هو الحكيم، ذلك أنهم رأوا أنَّ الحكمة ذات مقامٍ عالٍ لا يُحاط به! وهذا التقدير الكبير لمكانة الحكمة يتفق مع معانيها الواردة في القرآن، حيث جاءت وصفاً للقرآن، قال تعالى: (يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) [سورة يس: 1، 2]. وجاءت وصفاً للسنة، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)[سورة الجمعة: 2]. والحكيم اسمٌ من أسماء الله الحسنى، قال تعالى: (وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)[سورة سبأ: 1].

وبهذا نستنتج أنَّ القرآن هو الحكمة المطلقة، وأنَّ الحكيم هو اللهﷻ الحق المطلق، وأنَّ الفلسفة هي حبُّ الحكمة وليست الحكمة، هذه هي الحقيقة في ذات الأمر، بيد أنَّ التراث الفلسفي اليوناني وغيره غلب على هذه الحقيقة، فإذا ما ذُكِرتْ الفلسفة ذُكِر سقراط وأفلاطون وأرسطو، وذُكِر الفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم، ولكن حقيقة الفلسفة أوسع من تراثهم، والحكمة أوسع من الفلسفة حيث تعني كل قول أو عمل صائب، سواء كانت من فيلسوف أو أي إنسان سليم الفكر معتدل المزاج.

المبحث الثاني: الحكمة والشكر:

قرن القرآن بين الحكمة والشكر في قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)[سورة لقمان: 12]. ذكر ابن عاشور أنَّ الحكمة هنا هي المعرفة الصائبة الخالصة عن شوائب الأخطاء وبقايا الجهل في تعليم الناس وفي تهذيبهم؛ ولذلك عرفوا الحكمة بأنها: معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية، بحيث لا تلتبس على صاحبها الحقائق المتشابهة بعضها ببعض ولا تخطىء في العلل والأسباب، فهي اسم جامع لكل علم يراعى فيه إصلاح حال الناس[9]. وأول درجات الحكمة معرفة الله وصفاته وآثاره كما ذكر الفارابي في المدينة الفاضلة، وقد سبق في تعريف أرسطو للحكمة أنها العلم بالأشياء العليا، فأول الأشياء العليا هي معرفة المبدأ الأول أو المحرك الأول على حدِّ تعبيره، فمعرفة الله تدخل في معنى الحكمة النظرية أو العلمية، وأول ثمرات معرفة الله هي الشكر له، والشكر يدخل في معنى الحكمة العملية أو الأخلاقية، إذن فركنا الحكمة العليا معرفة الله وشكره، وقد جمع القرآن بين هذين الركنين في قوله تعالى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[سورة النحل: 78]. فالشكر هو الثناء على المحسن بما أَوْلاكَه من المعروف، يقال: شكرته وشكرت له، واللام أفصح، وشُكْرُ العبدِ يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكوراً إلا بمجموعها: أحدها: اعترافه بنعمة الله عليه. والثاني: الثناء عليه بها. والثالث: الاستعانة بها على مرضاته، والشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح، فالقلب للمعرفة والمحبة، واللسان للثناء والحمد، والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصيه[10].

وبهذا نستنتج أنَّ الحكمة الأولى العليا الجامعة لسعادة الدارين هي شكر الله تعالى، وهذه نقطة مهمة فاصلة بين القرآن وبعض المذاهب الفلسفية التي رأتْ

أنَّ الله تعالى هو العلة الأولى أو المحرك الأول للمكوَّنات التي تقوم على مبدأ العلية أو السببية! وعلى هذا الرؤية يكون الله تعالى فاعلاً بالطبع لا بالاختيار، وهذه فكرة باطلة قطعاً؛ لأنَّ الله تعالى هو الحي القيوم يخلق ما يشاء ويختار، ويمحو ما يشاء ويثبت، فهو فاعل بالاختيار لا بالطبع، قال تعالى: (**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا** يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)[سورة القصص: 68]. ومجيء الفعل المضارع في سياق الآيات الكونية يدل على استمرار خالقيته وقيوميته.

إذن فقوله تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ". قد لخصَّ هذا المسألة الكبرى في الحكمة الإلهية، ذلك أنَّ الشكر هو شهود آثار الربوبية في الخلق، فأنى توجه الإنسان رأى نعمة الله فحمده وأثنى عليه! وقد نال هذه الدرجةَ الكاملةَ الأنبياءُ عليهم السلام، ثم الأمثل فالأمثل كلٌّ بحسب مقامه، فالشكر يرقي الإنسان في درجات العرفان ويجلسه على بساط مائدة الرحمن؛ لهذا قال تعالى هنا: "وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ". ولاحظْ كيف ذكر الشكر بصيغة المضارع الدال على الحال والاستمرار؛ فهذا شأن المؤمنين والعارفين فهم في ترقٍّ مستمر، بينما ذكر الكفر بصيغة الماضي الدال على الانتهاء، فالمقام والتمكن للشكر لا للكفر .

المبحث الثالث: الألوهية:

يشير القرآن إلى أنَّ معرفة الله مغروزة في الفطرة، ولهذا الأنبياء عليهم السلام لم يدعوا الناس إلى الإيمان بوجود الله، إنما دعوا إلى التوحيد أي: أنَّ الله واحد لا شريك له، قال تعالى: (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)[سورة إبراهيم: 10]. وقد اهتم القرآن بأدلة التوحيد، وطريقة القرآن تختلف عن طريقة الفلاسفة في عرض الدليل، من حيث البساطة والوضوح والدقة والصحة، فمثلاً يرى الفلاسفة أن الله تعالى واحد من كل جهة، حيث لا فصل له، ولا جنس، ولا حدَّ، ولا ضد، ولا قسمة له في الكم، ولا في المبادئ، ولا في القول، فهو واحد بسيط[11]. فأما القرآن فذكر مثلاً قوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)[سورة الأنبياء: 22]. فأشار ببساطة ووضوح بأنَّ التعدد على إدارة شيء يفسده، فكذلك لو تعدد الإله في العالم لفسد، لكنه لم يفسد، ينتج أنه لم يتعدد الإله. وكذلك تشير الآية إلى دليل التمانع، وخلاصته أنه لو كان هناك إلهان فإما أن يتفقا أو يختلفا، فإن اتفقا على الشيء الواحد فأوجداه فيلزم ذلك اجتماع المؤثرين أو العلتين على محل واحد وهو محال، وإن اختلفا فأراد أحدهما وجوده على نحو، وأراد الآخر وجوده على نحو آخر، لزم التمانع لعدم المرجح فيلزم عجزهما، وإن كان لأحدهما لزم ترجيح الفاعل بلا مرجح، وعجز الآخر المنافي لإلهيته، والعجز مناف للألوهية بديهة[12].

ولقمان الحكيم لم يذكر أدلة على التوحيد، لأنه لم يكن بحاجة إلى الاستدلال، حيث كان يعظ ابنه الذي نشَّأه وربَّاه على ذلك، فهو يوصي ابنه على الثبات والاستمرار في توحيد الله، ويحذِّره أنْ يشرك بالله؛ وعلل ذلك بأنَّ الشرك لظلم عظيم! فهناك ارتباط وثيق بين الشرك والظلم سواء ظلم الإنسان نفسه أو المجتمع أو الكون، وهذه العلاقة بين الظلم والشرك مسألة مهمة تحتاج إلى بحث خاص مفصَّل. فالوصية الأولى من وصايا لقمان الحكيم لابنه كانت متعلقة بالألوهية التي شغلت الفكر الإنساني على مدار التاريخ، جاءت على شكل موعظة مناسبة لحال الابن الذي لم يبلغ سن

الرشد والاستدلال بعدُ، والذي نشأ على التوحيد أصلاً، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)[سورة لقمان: 13]. فالشرك بالله ظلم عظيم؛ لأنَّه حكم جائر مخالف للحقيقة، وهو حكم من مخلوقٍ مفتقر بذاته على الخالقﷻ الغني الحميد؛ لهذا هو ظلم عظيم بحق الإنسان؛ لأنَّه هو المتضرر من الشرك بالله، حيث يضيع بين الآلهة والأرباب المختلفة المتشاكسة، كلٌّ يريد أنْ يستعبده فيأخذ خيره ولا يعطيه، بينما الإله الواحد الحق يريد أن يحفظ الإنسان من الأغيار والأرباب والأسياد، وقد أكرمه بالإيجاد والإمداد والإسعاد! وتأملْ في هذا المثل تعرف سبيل الحقيقة والسلام: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[سورة الزمر: 29]. ذكر هنا مقام الحمد ليؤدي الإنسان شكر الإله بالتوحيد، ثم نبَّه إلى أنَّ أكثر الناس لا يعلمون حقيقة التوحيد؛ بل يرون فيه إذلالاً وعبودية للغيب، وقد نسوا أنهم بذلك يتخذون إلههم هواهم! فتأملْ حالَ رجلٍ قد اشترك فيه شركاءُ مختلفون فيما بينهم، ويتجاذبونه في حوائجهم، وهو متحير في أمره، فكلما أرضى أحدهم غضب الباقون، وإذا احتاج إليهم فكلُّ واحد منهم يرده إلى الآخر، فهو يبقى متحيراً لا يعرف أيهم أولى بأن يطلب رضاه، وأيهم يعينه في حاجاته، فهو بهذا السبب في عذاب دائم وتعب مقيم! وتأمل حال رجلٍ آخر، له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الإخلاص، وذلك المخدوم يعينه على مهماته. فأي هذين الرجلين أحسن حالاً وأحمد شأناً؟ هكذا حال من يثبت آلهة شتى، فإن أولئك الآلهة تكون متنازعة متغالبة، فيبقى ذلك المشرك متحيراً ضالاً، لا يدري أي هؤلاء الآلهة يعبد، وعلى ربوبية أيهم يعتمد، وممن يطلب رزقه، وممن يلتمس رفقه، فهمه شَعَاع، وقلبه أوزاع[13].

ثم أشار لقمان إلى صفات الإله الواحد، فذكر صفة العلم والقدرة واللطف، قال: (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)[سورة لقمان: 16]. فإذا غُرِسَتْ هذه الصفات في القلب أثمرتْ التقوى وارتقى الإنسان إلى درجة الإحسان التي هي أنْ تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك،، وبهذه يكون المؤمن ربانياً لا يتجاوز أمراً ولا نهياً! وهكذا ينبغي أنْ تكون الحكمة في تربية الأجيال، يُعَلَّمون الصفات الإلهية التي تثمر في القلب التقوى والإحسان، ولا يُشْغَلون عن هذه الثمرة بفروع الشجرة وأشكالها وألوانها، فتُحْشى أذهانهم باختلافات المتكلمين ويُرَكَّز على بعض الصفات كالصفات الخبرية فتُجْعَل مدار الإيمان والكفر، وقد رأينا نتائج ذلك في الواقع المعاصر، حيث عظمت الخلافات فضلل بعضهم بعضاً، وكفَّر بعضهم بعضاً، وقاتل بعضهم بعضاً! فظهرتْ الفتنة لما أفلتْ الحكمة!

المبحث الرابع: الدين والأخلاق:

الدِّين خُلُقٌ؛ لأنه جملة أعمال تصدر عن النفس الإنسانية، بعد أنْ تعتقدها تلك النفس الإنسانية، فتصير تلك الأعمال بالاعتقاد ملكات راسخة في النفس، تصدر عنها الأفعال بلا روية، وهذا هو معنى الخُلُق، حيث عُرِّف بأنه: "حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية"[14]. ومن الآيات الجامعة للأخلاق قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)[سورة النحل90]. والتدرج في التربية والتعليم منهج حكيم، فبعد ترسيخ الإيمان أو

الفكرة في القلب يسهل تلقي الأوامر والنواهي أي: التكليف، فقال لقمان لابنه: (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)[سورة لقمان: 17]. بدأ بالصلاة لأنها عماد الدِّين وحبل الوصل بين الخالق والمخلوق، بها يكون المدد الرباني في التزكية، والطاقة الإيجابية في السعي، فالصلاة تُعَدُّ معراجاً لترقي النفس الإنسانية نحو كمالها! وبعد أنْ يكون الإنسان كاملاً في نفسه ينبغي أنْ يكمِّل غيره، فلا يكون الحكيم حكيماً كاملاً إلا إذا حصلت له الفضائل النظرية أولاً، ثم الفضائل العملية، ثم تكون له القدرة على إيجادها في الأمم والمدن[15]. لهذا أوصى لقمان ابنه بعد الصلاة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا من أعظم الأعمال الاجتماعية والإنسانية؛ فذلك من عزم الأمور، أي: أعظمها وأشدها؛ لهذا لا يلتفت إليها إلا النبيون والربانيون والحكماء المصلحون، وشرطها الأهم للاستمرار هو الصبر على المصائب التي تصيب الإنسان، والمؤمن له في الأنبياء أسوة حسنة في هذا السبيل، قال تعالى: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ)[الأنعام: 34]. هذه تكاليف دينية شرعية تتضمن الأخلاق الإنسانية، إذْ لا تخرج عن مفهوم الدين، فالدين عقيدة وشريعة وأخلاق؛ ولهذا جمع لقمان في وصيته بين التكليف الشرعي والأخلاقي، فبينهما عموم وخصوص، فكل دين خُلُق وليس كل خُلُق ديناً؛ لأن الإنسان قد يكون صادقاً أميناً وهو غير مؤمن بدين. والأخلاق هي الركن الثاني في الفلسفة أو الحكمة، حيث تنقسم إلى حكمة نظرية وحكمة عملية، أي: أخلاقية. وقد ركَّز لقمان على أمرين مهمين ذات صلة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هما التكبر والعُجب، فقال لابنه: (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)[سورة لقمان: 18]. فلما أمر لقمان ابنه بأن يكون كاملاً في نفسه مكملاً لغيره خشي عليه من أمرين: أحدهما: التكبر على الغير بسبب كونه مكملاً له. والثاني: التبختر في النفس بسبب كونه كاملاً في نفسه. فقال: ولا تصعر خدك للناس تكبراً! ولا تمش في الأرض مرحاً تبختراً! إن الله لا يحب كل مختال أي: به خيلاء وهو الذي يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر، فخور أي: مَنْ يكون مفتخراً بنفسه وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه[16]. فالكبر والعجب داءان مهلكان، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان، وهما عند الله ممقوتان بغيضان[17]. وحقيقة العجب أنه ظن كاذب بالنفس في استحقاق مرتبة هي غير مستحقة لها، وحقيق على مَنْ عرف نفسه أن يعرف كثرة العيوب والنقائص التي تعتريه، فإن الفضل مقسوم بين البشر، وليس يكمل الواحد منهم إلا بفضائل غيره، وكل من كانت فضيلته عند غيره فواجب عليه أن لا يعجب بنفسه! وكذلك حقيقة الافتخار، فإنه المباهات بالأشياء الخارجة عنا، ومن باهى بما هو خارج عنه فقد باهى بما لا يملكه! وكيف يملك ما هو معرَّض للآفات والزوال في كل ساعة وفي كل لحظة، ولسنا على ثقة منه في شيء من الأوقات، وأصح الأمثال وأصدقها فيه ما قاله الله تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا)[سورة الكهف: 45]. وفي القرآن من هذه الأمثال شيء كثير، وكذلك في الأخبار المروية عن النبيﷺ[18].

والنهي عن التكبر والعُجُب لا يعني أنْ يكون الإنسان على ضده، وهو التذلل والاستصغار؛ بل يكون أمره معتدلاً بين أمرين مذمومين؛ لهذا أوصى لقمان ابنه بالوسطية والاعتدال، فقال: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)[سورة لقمان: 19]. أشار بالمشي إلى الأفعال، وأشار بالصوت إلى الأقوال، وبهذا جمع بين أحوال الإنسان كلِّها، فينبغي أنْ تكون على حدِّ **الاعتدال**، سواء مع نفسه أو مع الناس. وقد اهتم جمهور الفلاسفة بمبدأ الوسط في الفضائل، ومعناه كما ذكر أرسطو: "الذي لا يعاب بالإفراط ولا بالتفريط"[19]. وعرَّفه الراغب الأصفهاني بأنه: "القصد المصون عن الإفراط والتفريط"[20]. فالوسطية هي العدالة التي هي روح الفضائل الإنسانية باتفاق الأديان والحكماء! وتحدث للنفس من اجتماع الفضائل الثلاث الرئيسة العاقلة والغضبية والشهوية، وذلك عند مسالمة هذه القوى بعضها لبعض، واستسلامها للقوة العاقلة، ويحدث للإنسان بها سمة يختار بها أبداً الإنصاف من نفسه أولاً، ثم الإنصاف والانتصاف من غيره وله[21]. ويلاحظ أنَّ لقمان حين بدأ بالوصايا الأخلاقية الاجتماعية لم يقل: (يا بني) كما قال في الوصايا السابقة؛ وفي هذه إشارة إلى أنَّ الابن إذا بلغ سنَّ الرشد وصار ذا شأنٍ في المجتمع فينبغي أنْ يخاطَب مخاطبة الرجال، وأنْ يُبَجَّل من قِبَل أهله كما يُبَجِّله الناس.

خاتمة البحث

بعد البحث في معنى الفلسفة والحكمة، ودراسة وصايا لقمان الحكيم لابنه دراسة مقارنة بين الفلسفة والقرآن على نحو مختصر بما يناسب الأبحاث التي تنشر في المجلات، نسجل أبرز النتائج في النقاط الآتية:

أولاً: الفلسفة في اللغة حب الحكمة، وفي الاصطلاح إدراك حقائق الأشياء، ويقابلها في اللفظ العربي كلمة الحكمة، فتعني في اللغة: السداد في القول والعمل، وفي الاصطلاح أخذت المعنى الفلسفي نفسه، فأما استعمال القرآن للحكمة فكان واسعاً حيث تضمن كل ما هو خير وحسن، فهو أقرب إلى المعنى اللغوي، حتى القرآن نفسه يدخل في معنى الحكمة وذلك من حيث تضمنه الحقائق الكونية والإنسانية، بل هو مهيمن على الفلسفة، حيث حقائقه صواب لا تقبل الخطأ، ولم يثبت على مدى القرون المتعاقبة وعلى الرغم من التطور العلمي الكبير أنْ خالفت حقيقة علمية ثابتة يقيناً ما جاء في القرآن!

ثانياً: للقرآن طريقة خاصة في عرض الحقائق العلمية، تتميز بالبساطة والوضوح والدقة والصحة، فهي مناسبة للناس جميعاً على اختلاف مستوياتهم العلمية والثقافية، فيخاطب العامة والخاصة، وهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن.

ثالثاً: لخَّصتْ وصايا لقمان الحكيم بإيجاز بليغ معنى الحكمة وأقسامها لدى الحكماء! فقد أشارت إلى أبرز المسائل الفلسفية، أولها مسألة الألوهية التي اهتم بها جماهير الفلاسفة على مدى التاريخ الإنساني، ثم أشار إلى العلاقة بين الدين والأخلاق، فالدين أعم من الأخلاق، فكل دين خلق وليس كل خلق ديناً.

رابعاً: أشارت حكمة لقمان إلى أهم مسألة أخلاقية تتعلق بالفضائل الإنسانية وهي مسألة الوسطية أو الاعتدال، وسماها القرآن "القصد"، فقوى النفس الإنسانية الثلاث العاقلة والغضبية والشهوية إذا كانت على حدِّ الوسط تحققت الفضيلة الإنسانية ونال الإنسان بذلك السعادة.

خامساً: يلاحظ من خلال المقارنة بين الفلسفة والقرآن في هذا البحث أنَّ هناك توافقاً في المسائل الأخلاقية، وسبب ذلك أنَّ الأخلاق الإنسانية هي حقائق ثابتة لا تختلف أصولها العامة بين الناس في أي زمان وأي مكان.

فهرس المصادر

1. القرآن الكريم

2. **أرسطو** (ت322 ق.م)، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمة أحمد لطفي السيد، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط/ 1924م .

3. **أفلاطون** (ت 347 ق.م)، الجمهورية، ترجمة حنا خبّاز، دار القلم ببيروت، د/ط، د/ت.

4. بخاري (محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري (ت 256ه)، صحيح البخاري، تحقيق د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ببيروت، ط/1987م.

5. **بيضاوي** (ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي (ت 691ه)، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي ببيروت، د/ط/ د/ت.

6. **ترمذي** (محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي (ت 279ه)، سنن الترمذي، مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة، ط1975/2م.

7. **جرجاني** (محمد بن علي ابن الشريف الجرجاني (ت 838ه)، التعريفات، ضبطه وصححه جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية ببيروت، ط1983/1م.

8. **جوزية** (محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت751ه)، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، دار ابن كثير بدمشق،ط3/ 1989م. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي ببيروت، ط3/ 1996م.

9. **رازي**، (محمد بن عمر أبو عبد الله فخر الدين الرازي (ت 606ه) مفاتيح الغيب، دار الفكر بيروت، د/ط ، د/ت .

10. **راغب** (الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني (ت502ه)، الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق الدكتور أبو اليزيد العجمي، دار الوفاء بالمنصورة، ط2/، د/ت. والمفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم والدار الشامية بدمشق وبيروت، ط1/د/ت. وتفسير الراغب الأصفهاني، المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة، تحقيق ودراسة د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب جامعة طنطا،ط1999/1م. ومن أول سورة آل عمران وحتى الآية 113 من سورة النساء تحقيق ودراسة د. عادل بن علي الشِّدِي، دار الوطن الرياض، ط2003/1م.

11. **رشد** (أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد ابن رشد (ت 595ه)، تلخيص كتاب النفس، تحقيق الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، ط1950/1م .

12. **الزبيدي** (محمّد بن محمّد الزبيدي (ت 1205ه)، تاج العروس، دار الهداية، د/ط، د/ت.

13. **سعود** (محمد بن محمد أبو السعود العمادي(ت982ه)) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي ببيروت، د/ط، د/ت.

14. **السهروردي** (يحي بن حبش شهاب الدين السهروردي (ت 587ه) هياكل النور، مطبعة السعادة بالقاهرة، ط1/ د/ت.

15. **ابن سينا** (الحسين بن عبد الله ابن سينا (ت 428هـ)، تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، مطبعة هندية بالقاهرة، ط1/ د/ت. والشفاء(الإلهيات)، راجعه وقدم له الدكتور إبراهيم مدكور، تحقيق الأستاذين الأب قنواتي وسعيد زايد، د/ط: د/ت. والنجاة: الناشر محي الدين صبري الكردي: د/ط: د/ت .

16. **الشهرستاني** (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت 548 هـ)، الملل والنحل، تحقيق محمد فريد، المكتبة التوفيقية بالقاهرة، د/ط: د/ت .

17. **شيبة** (عبد الله بن محمد أبو بكر بن أبي شيبة (ت 235هـ)، مصنف ابن أبي شيبة(الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار)، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد بالرياض، ط1409/1.

18. **الطبري** (محمد بن جرير: (ت310هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر بيروت، 1984م .

19. **عاشور** (محمد الطاهر ابن عاشور التونسي)، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر بتونس، د/ط، د/ت.

20. **غزالي** (محمد بن محمد أبو حامد الغزالي (ت 505هـ)، إحياء علوم الدين، دار المعرفة ببيروت، د/ط، د/ت. ومقاصد الفلاسفة، تحقيق الدكتور سليمان دنيا: دار المعارف بالقاهرة، ط/1961م.

21. **الفارابي** (محمد بن محمد بن طَرْخَان الفارابي (ت 339هـ)، آراء أهل المدينة الفاضلة، د اسم الناشر، د/ط، د/ت. ورسائل الفارابي، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد بالهند، ط/1926م. والثمرة المرضية، كتاب الجمع بين رأي الحكيمين أفلاطون الإلهي وأرسطوطاليس، د/ط: د/ت.

22. **القرطبي** (أبو عبد الله محمد بن أحمد: (ت671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب بالقاهرة: ط2.

23. **كندي** (يعقوب بن إسحاق الكندي (ت 252هـ)، رسائل الكندي الفلسفية، (رسالة في حدود الأشياء ورسومها)، تحقيق الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، ط/1950م.

24. **مسكويه** (أحمد بن محمد أبو علي (ت 421هـ)، تهذيب الأخلاق، حققه قسطنطين زريق، نشر الجامعة الأمريكية ببيروت، ط/1966م .

25. **مسلم** (مسلم بن الحجاج (ت 216هـ)، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت، د/ط ، د/ت .

26. **النووي** (أبو زكريا محيي الدين يحي بن شرف النووي (ت676هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ط2.

الهوامش:

(1) انظر: رسائل الكندي الفلسفية(رسالة في حدود الأشياء ورسومها): الكندي: 121. والملل والنحل: الشهرستاني: 58/2.

(2) انظر: القاموس المحيط: الفيروزآبادي: مادة حكم .

(3) انظر: الجمهورية: 175.

(4) رسائل الكندي الفلسفية(رسالة في الفلسفة الأولى) : 97. وانظر: الثمرة المرضية(كتاب الجمع بين رأي الحكيمين): 1.

(5) رسائل الكندي الفلسفية(رسالة في حدود الأشياء ورسومها): 121.

(6) انظر: تاج العروس: الزبيدي: 512/31.

(7) جامع البيان: 576/5.

(8) تفسير الراغب الأصفهاني: 514/1.

(9) انظر: التحرير والتنوير: ابن عاشور: 327/14.

(10) انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: ابن القيم: 147.

(11) انظر: الفارابي: رسائل الفارابي(كتاب الفصوص): 4، وآراء أهل المدينة الفاضلة: 8، وابن سينا: الشفاء(الإلهيات): 354/2، والسهروردي: هياكل النور: 20.

(12) انظر: الرازي: مفاتيح الغيب: 15/22، والبيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 246/1.

(13) انظر: مفاتيح الغيب: الرازي: 450/26. معنى شَعَاع بالفتح: متفرق.

(14) تهذيب الأخلاق: مسكويه: 31. وراجع: آراء أهل المدينة الفاضلة: الفارابي: 46. والذريعة إلى مكارم الشريعة: الراغب الأصفهاني: 102.

(15) انظر: رسائل الفارابي(رسالة تحصيل السعادة): 39 .

(16) انظر: مفاتيح الغيب: الرازي: 122/25.

(17) انظر: إحياء علوم الدين: الغزالي: 336/3. وقد بسط الكلام في هذه المسألة.

(18) انظر: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق: مسكويه: 205.

(19) علم الأخلاق إلى نيقوماخوس: 244/1 .

(20) المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني: 869.

(21) انظر: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق: مسكويه 23.